السرد اللغوي ضمن سيرورة البنية الزمنية في رواية ذاكرة الجسد

أ. د. فاخر ميا أ. د. محمد مروشية ديما ميهوب إسماعيل

ملخص البحث:

للزمن أهمية كبيرة في العمل الروائي، وأوَّل ما يفكِّرُ بهِ الروائي في بدايةِ كتابتهِ هو تحديد الزمن الروائي، وهو محور الوجود وروحه الحقيقية، و" لابد للعمل الفني من بيئة زمانية تعبِّرُ عن حركتهِ الباطنية، ومدلولهِ الروحي بوصفهِ عملاً إنسانياً حيَّاً، والزمن يحدِّد طبيعة الرواية وشكلها، فشكل الرواية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعالجة عنصر الزمن، الذي لا وجود مستقل له في النص الروائي كما في حالة دراسة الشخصية أو الأشياء التي تشغل حيزاً، إنَّما نستخرجهُ من باقي العناصر الخاضعة لهُ في حركيتها ضمن أحداث الرواية . يتناول البحث دراسة عنصر (الزمن) وعلاقته مع خاصية السرد الروائي في رواية (ذاكرة الجسد)، للكاتبة الجزائرية (أحلام مستغانمي) بوصفهِما عنصرين هامين من عناصر الرواية، يجيبُ البحث على التساؤلاتِ التالية: هل يتطابقُ زمن السرد مع زمن القصة في رواية ذاكرة الجسد؟ ما تأثير المفارقات الزمنية على البنية الهيكلية للرواية؟ ما هو التأثير المتبَادَلُ بين البنى الزمنية والدلالاتِ السردية؟ مجموعةٌ من التساؤلات نطرحها ونجيب عنها في معرض دراسة التأثير المتبادلَ بين السرد الروائي و البنية الزمنية في رواية ذاكرة الجسد، حيث يتعمَّق هذا البحث في توصيفِ الزَّمنِ الطبيعي والزَّمنِ النفسي وطرحِ أشكالِ حركةِ السَّردِ الزَّمني في الرواية، وذلك من خلالِ استعراضِ شواهدَ منها ودراستها.

الكلمات المفتاحية : الزمن، الرواية، الأحداث، ذاكرة الجسد، الشخصيات، عناصر.

---

* أستاذ في قسم اللغة العربية، الاختصاص: الأدب الحديث، كلية الآداب- جامعة تشرين - اللاذقية – سورية.
** أستاذ في قسم اللغة العربية، الاختصاص: الأدب الحديث، كلية الآداب- جامعة تشرين - اللاذقية – سورية.
*** طالبة دراسات عليا: دكتوراه - قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

Time and Military Novel
Novel (Memory in the Flesh) as model

Dr. Fakher Mia
Dr. Mohamamed Maroushia
Dima Mihoub Ismail

A BSTRACT

Time has a great importance in any novelist work. The first thing a novelist thinks about at the very beginning start of his/her writing is to specify the novelist time, which is the centre of existence and it's true life." A work of art must have a time surrounding expresses its motion and spiritual connotation as a vivid, human work. Time specifies the nature of a novel and its form. The form highly interrelates with processing the element of time, which doesn't have an independent existence in the narrative text, as it is the case in studying the character, or things that have a space. On the contrary, we extract it from the remaining elements that depend on in its motion within the novel's events. The research covers the study of (time) element in the novel of (The memory in the Flesh) by Algerian novelist Ahlam Mostganmi as one of the important elements of it and gives answers to the following questions

Does narration time associate with the story time in the novel? What are the effects of time paradoxes on the structure of the novel? What is the mutual influence between the time structures and narrative connotations? We pose and answer these set of questions in our study to the time structure in (memory in the flesh) where the research takes a deep look in delineation of the natural and psychological time and presenting the forms of time narrative motion in the novel by taking evidences from the novel and studying them.

Keywords: time, novel, events, Memory in the Flesh, characters, elements

---

[*] **Professor In Arabic department language , literary professor, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

[*] **Professor In Arabic department language , literary professor, Tishreen University, Lattakia, Syria.** [*]

Postgraduate student: PhD, dept of Arabic, literary studies, Tishreen University,

[*][**] **Lattakia, Syria.**

أهمية البحث وأهدافه:

تتبع أهمية البحث من خلال دراسته لعنصر الزمن حيث لا يرتبط الزمان الروائي ببنية الرواية فحسب ، وإنما يتدخَّل فيرسمِ أبعادها الدلالية ، من خلال اشتمال مكوِّناته على مؤثراتٍ عديدة يخلقها الاختلاف في مواقيت جريان الأحداث على الشخصيات وارتباطها بالأمكنة والقيم والبنى الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ويحدِّدُ طريقة السرد التي تعبِّر عن الحالات المختلفة للشخصيات الروائية ، ويرتبط عنصر الزمن بعملية التَّلقي عند القارئ الذي ينفذ من خلاله إلى أعماقِ الرواية ، فيكشف عن بنياتها الدلالية العميقة. يحاول هذا البحث دراسة حالة تبادل التأثير، والتلازم بين البنية الزمنية والدلالية في رواية (ذاكرة الجسد)، لتحقيق فهمٍ أعمقَ وأوسعَ لها، والدراسة تحاول أن تكشف عن بنية توظيف الزمن الروائي وخصوصيته ودلالاته أيضاً، وإذ تغيَّر بناء الحدث الروائي في الرواية الحديثة، ولم يعد يخضع لمنطق السببية؛ فإنَّ هذه الدراسة ستوضح هذا التغيُّر عبر الغوص في أعماقِ البنية الزمنية للرواية وتعمل على تبيان المفارقة بين زمن الحكاية وزمن الخطاب السردي. فالسرد يحتاج إلى الامتداد الزماني بوساطة المعاني والدلالات التي يحملها النص الروائي، وبيان الدور الإقناعي الذي حملته الرواية؛ لإقناع القارئ وإشراكه بأفكارها ، والقضايا التي ناقشتها في متنها الروائي والتي تهدف إلى تغييرها على أرض الواقع.

ويأتي اختياري لهذه الرواية المتميزة، لما تحتويهِ من غنىً في اتباعِ أساليبَ متنوعة لموضوع الزمن، الذي يرخي بظلاله على البنية السردية والدلالات اللغوية والصور الفنية الشاعرية و المفرداتِ والمصطلحاتِ والحيثياتِ والأحداثِ فيها.

وقد اطلعت على مجموعة من الدراسات السابقة التي تناولت هذا الموضوع ومنها: "المفارقات الزمنية في ثلاثية أحلام مستغانمي " بلحر ياقوت ".[1] حيث بحثت هذه الدراسة المفارقات السردية في ثلاثية أحلام مستغانمي، لاكتشاف مدى اختراق الروائية لخطية الزمن، حيث تأتي الأحداث مرتبة تباعاً من خلال المفارقات السردية التي تتمثل في الاسترجاعات و الاستباقات، ويصبح لكل مفارقة مدى واتساعاً، تتراوح بين نقطة انقطاع السرد وبداية الأحداث.

وكذلك دراسة " جماليات الرواية النسوية الجزائرية" [2]للأستاذ الدكتور حفناوي بعلي.

و دراسة " تشكيل اللغة السردية في ثلاثية أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير).[3]

و قراءة " دراسة التقنيات الزمنية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي على ضوء الشكلانية"[4] للكاتب سعيد سواري.، وهي محاولة لدراسة الزمن في رواية "ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي "وذلك على ضوء زمن القصة والسرد اعتباراً من اللغة بوظائفها. فيتطرق البحث إلى تبيان كيفية تحوير الكاتبة الزمن شكلاً دائرياً وتناسبه بالخطاب تمثيلاً بتاريخ الجزائر المعاصر، وإلى تتبع توافق التقنيات الزمنية بالسرد، توصَّل البحث إلى أن زمن الرواية رغم اللا ترتيب في سرد الأحداث يفضي إلى تناسب التقنيات الزمنية والسرد وأن الزمن يوجه خطاب الكاتبة مما يكمن فيه طيات تجسد تاريخ الجزائر المعاصرة"

[1] - بلحر: ياقوت، المفارقات الزمنية في ثلاثية أحلام مستغانمي، جامعة وهران 2 ، محمد بن أحمد، الجزائر

[2] - أ. د. بعلي: حفناوي، جماليات الرواية النسوية الجزائرية.

[3] - طويل: زهرة، وأ.د: بن السايح: لخضر، " تشكيل اللغة السردية في ثلاثية أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير)، مجلة آفاق علمية ، الجزائر، العدد 11، حزيران 2016

[4] - سواري: سعيد، " دراسة التقنيات الزمنية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي على ضوء الشكلانية، مجلة إضاءات نقدية في الأدبين العربي والفارسي، جامعة آزاد الإسلامية العدد 27، مجلد 7، أيلول 2017.

و من الدراسات "بنية المدة الزمنية في رواية ذاكرة الجسد" [5] للكاتب رابح الأطرش

وكذلك "البنية الزمنية والمكانية في رواية (ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي" [6]للباحثة سعاد بن مقري، ، وهناك كثير من الدراسات التي تناولت نفس الموضوع . إنَّ دراستي هذه محاولة بسيطة لتسليط الضوء على موضوع محدَّد وآمل أن يفتح الباب أمام دراسات جديدة أكثر عمقاً .

منهجية البحث:

يعتمد هذا البحث المنهج الوصفي، الذي يبحث في تحليل الزمن وأنواعه ، ووظائفه في رواية (ذاكرة الجسد). حيثُ تمَّت متابعةُ الأحداثِ الواقعيةِ للرواية ورصدِ تسلسلها الواقعي من جهة، ومقارنتها كما جاءت في عمليةِ السرد القصصي، والبحث في معنى الانزياح الزمني بينهما، أي بين الزمن القصصي والزمن السردي، عبرَ شواهدَ من الرواية، تخصُّ البُنى الزمنية فيها، ولم تخلُ هذه المهمة من مشكلات وصعوبات عانيت منها، تجسدت بكثرة المراجع حول موضوع الزمن في الرواية ممَّا جعلني أمام صعوبة التصنيف والجمع والفرز والتدقيق.

مقدمة:

يُعَد الزمن هو العنصر الغائب الحاضر، القريب البعيد، الذي شغل ذهن الفلاسفة والنقَّاد في الدراسات الفلسفية والنقدية في العالم الغربي، إنَّ عنصر الزمن من أكثر عناصر الفن الروائي أهمية، وأعلاها قدراً، ويرجع ذلك لعلاقةِ الزمن الوثيقة بحياةِ

[5] - الأطرش: رابح، بنية المدة الزمنية في رواية ذاكرة الجسد، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس، الجزائر،2013/1/1

[6] - بن مقري: سعاد، البنية الزمنية والمكانية في رواية (ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي، دراسة مقدمة لنيل شهادة الماستر أكاديمي في جامعة محمد بوضياف في الجزائر، لعام 2017

الإنسان في مختلفِ العصور والبلدان، ومن اللافت للنظر أنّ معظم الروائيين الذين أسهمت تجاربهم في تطوير الرواية ونموها من حيث الشكل والمضمون كانوا مشغولي الذهن بالزمن وطبيعته ، وعلى الأخص علاقته ببنية الرواية "في خلق نصٍ إبداعي يمتلك شخصيته المتفردة ببعديها الذاتي والزمني"[7]. وقد وقع اختيارنا على رواية ذاكرة الجسد ، نظراً لغناها بالأشكال الزمنية والمفارقات الاسترجاعية والاستباقية التي عملت على خلخلة البنية الزمنية وغيَّرت في بنية السرد الروائي، حيثُ يُعَد الزمن عنصراً ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه في بناء الحدث القصصي، ويمثِّل محوراً أساسياً في تشكيل الخطاب الروائي، باعتباره من الفنون الزمنية، فيتحدَّد ويتبلور شكل البنية الروائية معتمداً على شكل البنية الزمنية لها ويؤثِّر في توصيل دلالاته؛ وهذا ما تسعى إليه هذه الدراسة السريعة للرواية ،

وللوقوف على عنصر الزمن في رواية (ذاكرة الجسد) للكاتبة أحلام مستغانمي نقدِّمُ هذا الملخَّص لأحداث الرواية:

ملخَّص الرواية:

تبدأُ الرواية ببعضِ المقولاتِ المُمهِّدة للتأكيدِ على عنصرِ الكتابةِ التي ستكونُ هي المحورُ الأساسي في البنية الهيكلية للرواية، ذلكَ أنَّ لا أحداثَ مباشرة تجري فتتحدَّثُ عنها، إنَّما قراءة من دفاترِ الذكرياتِ لما خطَّتهُ يدُ البطل ودوَّنتهُ لأحداثٍ مضتْ، يحاولُ استرجاعها بسردٍ مباشرٍ متواصل، موزَّعٍ على ستةِ فصولٍ يفصلُ بينها خيطٌ وهميٌ ضعيف، يكادُ لا يُرَى، لذلك جاءتْ هذه الكلمات و التعابير التي تتعلَّقُ بالكتابة مثل: القلم، الروايات، رسائل وبطاقات، عناوين، الحبر الأسود.....

[7]- ميا: فاخر، مجلة المعرفة السورية، العدد 431، دمشق، آب، 1999 ص208

" ها هو القلمُ إذن.. الأكثرُ بوحاً والأكثرُ جرحاً" [8]

" في النهاية ليست الروايات سوى رسائل وبطاقات، نكتبها خارج المناسباتِ المعلنة.. لنعلنَ نشرتنا النفسية، لمَن يهمهم أمرنا."[9]

عناوين كبرى.. كثير من الحبرِ الأسود. كثير من الدم. وقليل من الحياء." [10]

25 أكتوبر 1988.

تُسطِّرُ الروائية أحلام مستغانمي هذا التاريخ في بداية الرواية ص15 وحينَ نقرأُ في آخر صفحةٍ من الرواية ص 404 نجدُ أنَّها قد ختمت الرواية بالعبارة التالية" باريس، تموز 1988. وبالمقارنة والتدقيق بين التاريخين نجدُ أنَّ تاريخَ انتهاءِ كتابةِ الرواية هو قبلُ تاريخِ بدايتها، وهذا اللعبُ المكشوفُ والمباشَرُ لزمنِ الكتابةِ وزمنِ الانتهاءِ ، لهُ مدلولاتٍ عِدَّة، أوَّلُها : كسرَ تراتبية الزمن الروائي، وعدمِ الالتزام بخَطِّ السيرِ التقليدي الذي ينطلقُ من الماضي باتجاهِ الحاضرِ فالمستقبل، وثانيها: إعطاءَ الرواية خاصيَّةَ الاستمرارية وخروجها من بين دفَّتَي الكتاب لتستمرَّ في تعقُّبِ الأحداثِ ومتابعتها على أرضِ الواقع، وثالثها : رسمَ إطارٍ زمني محدَّد للبنية الزَّمنية للرواية. في هذه الرواية عبّرت الكاتبة أحلام مستغانمي عن واقع الجزائر بصورة عامة ومدينة (قسنطينة) بصورة خاصة، وهي تخوض كفاحها المرير للتخلُّصِ من الاحتلال الفرنسي، والبَدْءِ بمرحلةِ بناءِ الدَّولة وتحدياتها بعد إنجازِ الاستقلال، فجاءت الرواية بمثابة وقفة مراجعة واستذكار بين طموح الإنسان والنقطة التي وصل إليها في كفاحهِ من أجلِ مبادئهِ وأهدافهِ وبين ماضيه وأحلامهِ التي رسمها في رأسهِ ، وسخَّرَ لها حياتهُ كلِّها، إنَّها سردة أدبية لما اكتنفَ الجزائرَ من أحداث قبل وبعد الاستقلال من خلال أبطال الرواية ، وبِدءاً من

[8] ، مستغانمي، أحلام، رواية ذاكرة الجسد، ط16، 2001، دار الآداب، ص10
[9] الرواية، ص11
[10] الرواية، ص15

العنوان "ذاكرة" الذي يعبِّر عن المخزون الحامل للأسرار والخفايا والأحداث المدفونة، مرتبطاً بـ "الجسد" الذي يعبّر عن الارتباط بالشخصية وعلاقتها بالمكان، فإنَّنا نستشفُّ محورَ الرواية وبؤرتها التي انفرجت عنها جميعُ الأحداث عبر أبطالها الرئيسيين والثانويين. حيثُ تدور أحداث رواية "ذاكرة الجسد" ، بين عدد من الشخصيات الرئيسية، وهي: شخصية" خالد بن طوبال " وهو البطل والسارد في الرواية، وهو شخصية حزينة طموحة ، تمتلك ذاكرة مشتتة بين الماضي والحاضر ، و"حياة – أحلام" : شابة جزائرية كاتبة ، تدرس في باريس، أحبَّها خالد ، وهي ابنة (سي الطاهر)، "زياد الخليل": شاعر فلسطيني صديق خالد ، يشترك معه في حب الوطن والتضحية، ويمثل الشخصية الثانوية التي كانت ذاكرة خالد تسترجعها، يستشهدُ في بيروت، ويتركُ خبرُ استشهادهِ أثراً حزيناً ومؤلماً عند البطل خالد بن طوبال. "سي الطاهر عبد المولى": هو والد (حياة – أحلام) وصديق خالد وقائده في وقت الكفاح، فكان مُجاهدًا وشهيدًا همّه الوحيد حرية بلده. الذي استشهد عام 1960م" مات (سي الطاهر) على عتبات الاستقلال، لا شيء في يده غير سلاحه، لا شيء في جيوبه غير أوراق لا قيمة لها.. لا شيء على أكتافه سوى وسام الشهادة،... استشهد هكذا في صيف 1960، دون أن يتمتَّع بالنصر ولا يقطف ثماره"[11] "كاترين": هي امرأة غربية شقراء طالبة في مدرسة الفنون الجميلة، تسكن في الضاحية الجنوبية لباريس، و كانت صديقة خالد. "حسان": هو الأخ الأصغر لخالد، فَقَد والده منذ أن كان صغيرًا، لذا كان متعلقًا بخالد لتعويضه عن حنان الأب، يعملُ مدرِّساً للُّغة للعربية. "ناصر": هو الابن الأصغر لسي الطاهر، أخ (حياة) تخلى عن دراسته الجامعية واختار أن يسلك طريق التجارة، وهو شخصية متمسكة بأرضها ووطنها.

تحكي الكاتبة في هذه الرواية قصة (خالد بن طوبال)، الذي شارك في الثورة الجزائرية وهو في الخامسة والعشرين من عمره تحت قيادة (السي طاهر عبد المولى)، وكلاهما من

[11] الرواية، ص45

مدينة (قسنطينة)، يُصاب خالد برصاصتين في كتفه اليسرى في إحدى المعارك ويُنقل مع الجرحى إلى تونس للعلاج، ويُعطيه (سي الطاهر) رسالة يوصلها إلى عائلته المقيمة في تونس،" وبعدما دخل خالد المستشفى وبدأ العلاج، رسم لوحة اسمها "حنين" وهي عبارة عن(جسر الحبال) وهو جسر معروف في المدينة، لهُ تأثير كبير على خالد وهو في غربته في فرنسا، يخاطب (خالد بن طوبال) هذا الجسر من خلال لوحتهِ وكأنَّهُ يخاطبُ نفسهُ قائلاً:" صباح الخير قسنطينة، كيف أنتِ يا جسري المعلَّق، يا حزني المعلَّق منذ ربع قرن؟"[12]

تبدأ أحداث الرواية بعودة الشاب خالد بن طوبال إلى الجزائر بعد سنوات طويلة قضاها في بلاد الغربة (فرنسا) ، للمشاركة في مراسم دفن أخيه حسَّان الذي قُتِل برصاصة طائشة في أحداث شهر أكتوبر من عام 1988م، وفي تلك الفترة يقرِّر أن يكتب القصة التي عاشها مع "حياة"، لأنه يريد أن يمسَحها من ذاكرته بعد خبرِ زواجها من شخصية جزائرية معروفة ب سي...

يستعيدُ البطل خالد ذكرياتِ حياتهِ حينَ فقدَ ذراعهُ فأحسَّ أنَّهُ فقدَ كيانهُ وطفولتهُ ووطنهُ حيثُ ارتبطت هذهِ المكوِّنات المكانية بجزءٍ حميمٍ من شخصيتهِ وجسدهِ و تماهى الاثنان مع بعضهما فجاءتْ لوحةُ الجسرِ لتعبِّرَ عن هذا الفقد وتراكم الخسارات في روحهِ وجسدهِ ، فحملها حزناً دائماً في عقلهِ الباطن وضميرهِ المترَع بالألم والأسى بعدَ رحيلهِ عن وطنهِ الأم ، " كان الجسر تعبيراً عن وضعي المعلَّق دائماً، ومنذ الأزل، كنت أعكسُ عليهِ قلقي ومخاوفي ودواري دون أن أدري. ولهذا كان الجسرُ هو أول ما رسمتُ يومَ فقدتُ ذراعي."[13] لعبَ منظرُ الجسر حالةً تعويضية عن الفقدِ والهزائم الجسدية والروحية والنفسية للبطل ، في حين سيرينا السردُ الروائي لاحقاً كيفَ أنَّ هذه اللوحة إنَّما كانت

[12] الرواية، ص79
[13] المرجع السابق، ص208

حالة احتفالية بولادة (حياة– أحلام) بعد أسبوعين. عبَّر فيها عن شوقه لبلده (قسنطينة)، سافر خالد إلى باريس ويده اليسرى مبتورة، ليُقيمَ هناك معرضًا للرسم. يلتقي فيه ب(حياة) ابنة سي الطاهر التي زارها في تونس وهي ما زالت طفلة، والآن بعد مرور 25 سنة يراها مرة أخرى شابة جميلة تزور معرضه في باريس، وقد نشأت بينهما قصة حب ، وعادت به الذاكرة 25 سنة إلى الوراء، وأصبح (خالد وحياة) يلتقيان دائمًا، لكنَّهما أكثرَ اضطراباً وقلقاً واغتراباً، تطاردهم الأمكنة في باريس،: " أين نلتقي؟ كان هذا هو السؤال الأهم الذي قرَّرنا أن نجيبَ عليه بجديَّة..... ولكن باريس ضاقت بنا" [14] كان يرى في ملامح (حياة) ولهجتها مدينته (قسنطينة)، " أنتِ مدينة.. ولستِ امرأة، وكلَّما رسمتُ قسنطينة رسمتكِ أنتِ، ووحدكِ ستعرفين هذا.." [15] بعد ذلك ترحل (حياة) إلى الجزائر وتترك فراغًا كبيرًا في قلب خالد، في يوم من الأيام يأتي اتصال ل(خالد) من (سي شريف) يُخبره فيه أنه سيأخذه معه إلى قسنطينة لحضور زفاف حياة، يقولُ متذكِّراً: " ولكن صوته أعادني إلى الواقع عندما سألني: – أتدري لماذا طلبتكَ اللّيلة؟ إنَّني قرَّرتُ أن أصحبَكَ معي إلى قسنطينة.. لقد أهديتني لوحةً عن قسنطينة وأنا سأهديكَ سفرةً إليها..

صحتُ متعجِّباً: – قسنطينة.. قسنطينة؟ قال وكأنَّهُ يزفُّ لي بشرى:

- لحضورِ عرسِ ابنةِ أخي الطاهر..–ثمَّ أضافَ بعد شيءٍ من التفكير.
- .. ربَّما تذكرها. لقد حضرتْ افتتاحَ معرضك منذ شهور مع ابنتي ناديا.. شعرتُ فجأةً أنَّ صوتي انفصلَ عن جسدي، وإنَّني عاجز أن أجيب بكلمةٍ واحدة."[16]

[14] المرجع السابق،ص139
[15] الرواية، ص164
[16] الرواية، ص268

يدخلُ البطل خالد في حالةٍ من الذهولِ والارتيابِ والقلقِ ، فقد شكَّلَ لهُ هذا الخبر صدمةً كبيرةً، يتحدَّثُ عنها بحوارٍ نفسي يجترُّ فيهِ جزءاً من حياتهِ التي قضاها مع (حياة) في العاصمة الفرنسية باريس، وهنا تلجأ الكاتبة إلى تقنيةِ الاسترجاعِ لتعودَ بحديثِ البطل خالد للوراءِ فيستعيد اللحظاتِ والأفعالِ والأحداثِ التي عاشها مع (حياة)، ويقارنها معَ الحالة التي استجدَّت لديهِ بعدَ سماعهِ بنبأِ عرسها والتحضيرِ للزواجِ من شخصٍ آخر.

" أجبتهُ وأنا أبحث عن مخرجٍ لتوتُّري:

- الحقيقة أنَّني لستُ مستعدًّاً نفسياً بعد لزيارةٍ كهذهِ.. وأفضِّلُ أن تكونَ في ظروفٍ أخرى.." [17]

بعد سماعه بهذا الخبر يُعلن (خالد) حينها خروج (حياة) من حياته، وعندما يصل إلى الجزائر ويزور مدينته – قسنطينة – يتجول فيها مُستعيداً ذكرياته التي عاشها هناك، وبعدها يعود إلى فرنسا، وفي يوم من الأيام يأتيه خبر موت شقيقه (حسَّان) ، وبذلك زار خالد قسنطينة مُكرهًا مرتين، مرة ليحضر عرس (حياة)، ومرة ليدفن أخاه، فبقيت ذاكرته مترعةً بالحزن والألم." سأحدِّثكِ عن تلك المدينة التي كانت طرفاً في حبِّنا، والتي أصبحت بعد ذلكَ سبباً في فراقنا، وانتهى فيها مشهدُ خرابنا الجميل." [18]

هذا ملخَّص سريع لرواية (ذاكرة الجسد) ، وعند المرورِ عليها بكلِّ تفاصيلها وقراءةِ أحداثها نجدُ تنوع الأحداثِ فيها، وتعدُّد الأماكن، من قسنطينة إلى باريس إلى بيروت وغرناطة والمعارك في الجزائر عموماً ، وكانت الأماكنُ مفتوحةً تارةً ومغلقةً تارةً أخرى، وتبعاً لها كان يتجدَّدُ الزمن ويتوالد و يتحوَّرُ ليناسبَ تموضعِ الشخصياتِ في تلكَ

[17] الرواية، ص269
[18] المرجع السابق، ص48

الأماكنِ المفتوحةِ منها والمغلقة. الأمر الذي ساهم في إثراء دلالة النص الروائي، و كانَ من السهلِ على البطل أن يتحرَّكَ عبرَ فضاءٍ زمنيٍ واسعٍ ومدهش، " اليوم وبعدَ ستِّ سنواتٍ على تلكَ الزيارة، أستعيدُ ذلك اليوم، وكأنَّني أعيشهُ مرَّةً أخرى، بكلِّ هزَّاتهِ النفسيّة المتقلِّبة." [19] إنَّهُ العودة بالزَّمن إلى لحظةٍ مفقودة توقَّفَ عندها سابقاً ويريدُ أن يستعيدها بكلِّ ما تحملُ من عواطفَ وانفعالات.

تتأثر البنى الزمنية في رواية (ذاكرة الجسد) بنوعية السرد الروائي للأحداث و كيفية تصوير نمو الشخصيات بفعلِ الزمن وانغماسها في تفاصيل المكان، حيثُ يرتبطُ المكانُ بالزمانِ بشكلٍ عضوي، " كيفَ أصبحنا نسخة من بعضِنا.. و كيف يمكن لنا أن نغادرَ هذا المكان، الذي أصبحَ جزءاً من ذاكرتِنا؟ كيف..؟ وهو الذي وضَعَنَا لعدَّةِ أيَّام، خارج حدودِ الزَّمانِ والمكان، في قاعةٍ شاسعة، يسكنُها الصَّمتُ ويؤثِّثُها الفن، وربع قرن من المعاناةِ والجنون؟ "[20] فاللقاءاتِ الحميمة في قاعةِ عرض اللوحات التي رسمها خالد وغناها المعرفي والثقافي أجَّجَ الحوار بكل أشكالهِ بينهما مما استدعى طريقةً مناسبةً لتخليدِها والاحتفاظِ بها عن طريقِ رَكنِها في قاعِ الذَّاكرة والعودةِ إليها متى أرادا ذلك، فجاءَ السردُ المباشَر المتَّكئُ على المفارقة الزَّمنية المتعلِّقة بعمليةِ الاسترجاعِ، مناسباً لمثلِ هذه الحالة.

الزمن وأشكالهُ في رواية ذاكرة الجسد:

الزمن الروائي هو سير الأحداث الروائية المتتابعة وفق نظام لغوي محدد، يرتكز على التواتر والتتابع والترتيب، للتعبير عن الواقع الحياتي المعاش وفق الزمن الواقعي أو

[19] الرواية، ص158
[20] الرواية، ص129

السيكولوجي أو الفلسفي، وقد قسَّمَ الروائي "ميشال بوتور" الزمن الروائي إلى ثلاثة أزمنة هي:

" زمن الكتابة، وزمن المغامرة ، وزمن الكاتب، وكثيراً ما ينعكس زمن الكتابة على زمن المغامرة بواسطة زمن الكاتب، وهكذا يقدم لنا الروائي خلاصة قصة نقرؤها في دقيقتين أو في ساعة ، وتكون أحداثها جرت خلال يومين أو أكثر للقيام بها، أو خلاصة لحوادث تمتد على مدى سنتين"[21]. فزمن الكتابة في الرواية المحدَّد بحالة السرد يتقدَّم على زمن المغامرة التي وقعت قبل سنوات من تاريخ الكتابة، فيوم الاستقلال سابق ليوم الكتابة ويوم الكتابة سابق لزمن السرد، (" يوم الاستقلال بكت جدتي كما لم تبكِ يوماً. سألتها" أمَّا.. لماذا تبكين وقد استقلَّتِ الجزائر؟" قالت: " كنت في الماضي أنتظر الاستقلال ليعود لي الطاهر، اليوم أدركتُ أنَّني لم أعد أنتظرُ شيئاً".)[22]

وحسب رأي الشكلانيين الروس في معرض تناولهم لمسألة السرد الزمني في بنية الخطاب الروائي فإنَّ"(المتن الحكائي) هو مجموع الأحداث نفسها مع مراعاة نظام ظهورها في العمل وما يتبعها من معلومات تُعيِّنها لنا"[23]، يقولُ البطل خالد "انتهى معرضي إذاً. لم تهتم به غير صحافة فرنسية مختصة كالعادة. وبعض المجلاَّت العربية المهاجرة. ولكن يمكن أن أقول إنه حصل على تغطية إعلامية كافية،" [24] يشكِّلُ (معرض الرسم) الحدث الرئيسي المهم الذي قام به البطل خالد في باريس، وعنهُ انبثقتْ أحداثٌ جديدة وتوالدتْ قصصٌ كثيرة شكَّلت المتنَ الحكائي في الرواية إضافةً لما سبقه من أحداثٍ مختلفة للبطل قبل المعرض، فمنحتْ الرواية الزَّخمَ الأكبر في عملية

[21]- بوتور: ميشال ، بحوث في الرواية الجديدة، سلسلة زدني علماً، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت ، ص101
[22] الرواية، ص107
[23]- الشكلانيون الروس، نظرية المنهج الشكلي، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين، مؤسسة الأبحاث العربية، 1982 ص180
[24] الرواية ص179

الاشتغال البنائي وحيوية السرد والوصف والحيوية الزمنية، وفق نظامٍ سردي زمني يتعلَّقُ بتكسير رتابة الزمن، فحيناً يسترجعُ الأحداثَ ليسردَ ما مضى منها وما غفِلَ عن القارئ، وحيناً يستبقها، و يستشرفها أحياناً في عمليةٍ تنبؤية لما سيقعُ في المستقبل، ليمهِّدَ للقارئ ما سيشاهده لاحقاً، " فزمن القصة هو ترتيب الأحداث المتصلة المخبَر عنها كما وقعت، وزمن السرد هو ترتيبها ونظام ظهورها في العمل؛ فنياً من قبل الكاتب" [25] يستعيد البطل إحدى جلساتِ العشاءِ مع سي الشريف ذات يوم من أيام شهر فبراير/ شباط / فماذا جرى؟ ولماذا يتذكر هذا اليوم؟ وما علاقتهُ بأحداثِ الرواية؟ " ما زلتُ أذكرُ ذلك اليوم من فبراير، عندما جاءِ صوت سي الشريف على الهاتف، ليدعوني إلى العشاء في منزلهِ. فوجئتُ بدعوتهِ،"[26] ولكننا لن نتفاجأ حين نعرف بعد ذلك أن سي الشريف هذا قد باركَ زواج حبيبة خالد(حياة) من سي ...والذي لم يوضِّح اسمه أكثر من ذلك.

وبعد عدة صفحاتٍ من السرد التخيُّلي الذاتي يفسِّرُ لنا خالد موقفه من هذه السهرة في "المجلس (الراقي) الذي يضمُّ نخبةً من وجهاءِ المهجر، الذين يحترفون الشعاراتِ العلنية.. والصفقاتِ السرِّية . من الواضح أنَّني كنتُ في كوكب ليس كوكبي" [27] يبدو أنَّ الكاتبة تعرضُ الأحداثَ وفقَ تراتبية زمنية كلاسيكية، ولكن استخدمت عملية التداعي والتذكُّر للعودة إلى أحداثٍ ماضية ومنها فسَّرت مواقف البطل المتعدِّدة من كل ما يجري على الصعيد الشخصي له وعلى صعيد الوطن وأبنائه بعد الاستقلال، فاستمرَّ في سردِهِ للسهرة التي ضمَّت متنفذين وضبَّاطَ سابقين وتجار جزائريين على أرضٍ فرنسية، فهو غير مرتاح ولا مطمئن لهؤلاء الأشخاص الذين ركبوا موجة الاستفادة الشخصية من مجريات الثورة وتحولاتها فكانوا جاهزين لتسويقِ الشعارات البرَّاقةِ اللَّامعة والتي تناقضَ محتواها من أجلِ الحصولِ على مكاسبَ أكبر من العقارات والأموال والسلطات وحياة

[25] يقطين: سعيد، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، 1997م، ص 70
[26] الرواية، ص229
[27] الرواية، ص232

الكيف والبذخ على حساب دماء الشهداء. وقد عبَّرَ عنهم خالد في معرضِ توصيفهِ لتلكَ السهرة " وكنت أتساءل طوال تلك السهرة، ماذا كنت أفعل وسط ذلك المجلس العجيب؟ كنتُ أتوقَّعُ أن تكون تلك الدعوة عائلية، أو على الأقل موعداً نادراً لي مع الوطن ، أستعيدُ فيه مع سي الشريف ذكرياتنا البعيدة. ولكنَّ الوطن كان غائباً من تلك السهرة . نابَ عنهُ جرحهُ ، ووجههُ الجديد المشوَّه."[28]

أمَّا" زمن الخطاب فهو زمن السرد، أي زمن تقديم الأحداث والذي لا يتقيَّد بترتيبها المنطقي التسلسلي، فيتلاعب بترتيب الأحداث، وزمن الخطاب زمن متأخِّر عن زمن القصة، إذ تكون الأحداث قد اكتملت بشكلٍ نهائي، ما يتيح للسَّارد إمكانيات التلاعب في تقديمها."[29] يقولُ بطل الرواية خالد : " في ذلك الشهر الأخير من الصيف، كنت ما أزال أتوقَّعُ رسالة منك، تعطيني شيئاً من القوة والحماسة اللتين افتقدتهما خلال الشهرين الماضيين لغيابك. عندما فاجأتني رسالة من زياد." [30] إنه يتحدث عن زمن حدده بوضوح ب"الشهر الأخير من الصيف" والحدث المنتظر هو "توقُّع وصول رسالة من حياة"، فالرسالة لم تصل بعد وزمنها لم يحن، وما زال ينتظر، ولحظتها وصلت رسالة زياد، إنه التداخل بين الزمنين المحكي والمروي. فزمن الخطاب يدور حول الوقت الحاضر أي لحظة التكلُّم، وقد "تقاربت رؤية النقَّاد والروائيِّين حول مفهوم الزمن الروائي، حيث تتمثَّل هذه الرؤية في زمنين روائيَّين: الأوَّل : الزمن الذي تشغله الأحداث المسرودة، والثاني: الزمن الذي يستغرقه قراءة هذا الحدث، أي العلاقة بين الزَّمنين".[31]

[28] الرواية، ص234
[29]- أ. بكوش: يوسف، بلاغة البناء الزمني في الخطاب الروائي، جامعة سيدي بلعباس، مجلة تاريخ العلوم عند العرب، العدد الرابع، ص142
[30] الرواية، ص191
[31]- د. مبروك: مراد عبد الرحمن، (بناء الزَّمن في الرواية المعاصرة) تيار الوعي نموذجاً، صادر عن الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، ضمن سلسلة دراسات أدبية، عام ،1998 ، ص10

وكي نفهم الزمن السردي في العمل الروائي، لا بدَّ من التفريق في الخطاب السردي بين زمن القصة، وزمن السرد، فزمن القصة "يخضع بالضرورة للتتابع المنطقي للأحداث، بينما لا يتقيد زمن السرد بهذا التتابع المنطقي"[32] ، استعادَ خالد ذكرياتهِ عن زياد الذي عاد مرةً ثانية إليه بعد غياب فشرعَ بالسرد والوصف لتلك اللقاءات الجديدة بأسلوبِ ضميرِ المتكلِّم متحدِّثاً عنه وعن زياد "عُدنا تلقائياً إلى عاداتنا القديمة التي تعودُ إلى خمسِ سنوات، عندما زارني لأول مرة في باريس. رحنا من جديد إلى المطاعم نفسها تقريباً. جلسنا وتحدَّثنا في الموضوعاتِ نفسها تقريباً، فلا شيء تغيَّر منذ ذلك الحين." [33] ويتابعُ تذكَّرَ ما مضى من أحداثٍ مرَّت في حياتهِ يسردها الآن ولكنها حدثت من قبل:

" اليوم بعد ربع قرن ..، أنت تخجلُ من ذراع بدلتك الفارغ الذي تخفيه بحياء في جيب سترتك. وكأنك تخفي ذاكرتك الشخصية، وتعتذر عن ماضيك لكل مَن لا ماضي لهم."34

" وعدتُ إلى دهشتي الأولى معكِ.. إلى كلِّ التفاصيل الأولى التي لفتت نظري إليكِ منذ البدء."[35]

وقال متحدثاً إلى (حياة) ابنة (السي طاهر):

" كان والدكِ رفيقاً فوق العادة. كان استثنائياً في حياته وفي موتهِ. فهل أنسى ذلك؟ لم يكن من المجاهدين الذين ركبوا الموجة الأخيرة، ليضمنوا مستقبلهم، مجاهدي (62) وأبطال المعارك الأخيرة." [36] فالحديث هنا لحظة السرد إنما يخالف سير الأحداث، لذلك يستعيد زمناً مضى ليضيءَ شخصية السي طاهر ويتحدث عن قيمه النضالية وأخلاقه

[32] لحمداني: حميد، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، 1991م، ص 73
[33] الرواية، ص196
[34] المرجع السابق، ص 72
[35] الرواية، ص58
[36] الرواية، ص44

الثورية، ويصفَ لنا مالم نعرفهُ، إنَّ القارئ للرواية يلاحظ التفاوت,والتَّغيُّر والانقطاع في الأزمنة، فهناك أحداث أطالت الكاتبة في سردها، وهناك أحداث تم تخطِّيها والتجاوزِ عنها ، فروت الأحداث بعيداً عن القواعد النحوية التي تتداخل فيها أزمنة مختلفة، ممَّا يجعل نظام السرد يقوم على الانقطاعات وهذا " ما يسمى بتقنية الانقطاع "[37] ، وهكذا تختزل القصة حقباً من الزمن الواقعي إلى زمن مضغوط" أو زمن مزيف يجعل القارئ حياله يتجاوز زمن الحياة الاعتيادي ليدخل في نظام زمني مختلف"[38] فيشكل الحدث بنيات سردية صغرى، تشكل في الأخير بنية سردية كبرى من خلال أزمنة متداخلة.

في حوار خالد مع أخيهِ حَسَّان في بيتهِ بعد عودة خالد إلى قسنطينة، " يستمر السرد الخيالي كما هو منسكباً من تلافيف الذاكرة، عندما عاد خالد إلى بيته الذي صار بيت أخيه حسان في قسنطينة بعد غيابٍ طويل فشعر بالقلق الذي راح يتساءل عن سببه هل " هو صدمة لقائي العاطفي الآخر مع ذلك البيت، الذي ولدتُ فيه وتربيت ، والذي على جدرانه وأدراجه ونوافذه وغرفه وممراته، كثير من ذاكرتي، من أفراح ومآتم وأعياد.. وأيام عادية أخرى، تراكمت ذكراها في أعماقي لتطفو الآن فجأة.. كذكريات فوق العادة تلغي كل شيء عداها؟ ها أنا أسكن ذاكرتي وأنا أسكن هذا البيت، فكيف ينام مَن يتوسد ذاكرته؟ [39] إنه يسرقُ من لحظةٍ حاضرة فسحةً من الزمن يعودُ فيها إلى سنواتٍ طويلةٍ مضتْ يستعيدُ أحداثها وما علقت بها في تلافيف الذاكرة، بين حدثين ماضٍ وحاضر، ينوسُ فعلُ السرد الحكائي ليؤلِّفَ وحدةً زمنيةً متكاملة ضمن وحداتٍ سردية أخرى منبثقاً عنها، لذلك أوقفَ الساردُ حديثهُ عن (حياة) التي جاءَ ليحضرَ عرسها، ويؤجِّلَ هذا الحديث لعدة صفحاتٍ يسردُ خلالها الحدثَ الجديدَ ويضيئ عليه، ألا وهو لحظةَ لقائهِ

[37] بوتور: ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، 1981 م، ص 10
[38] ملك: عزة آغا، القراءة والكتابة في الرواية الحديثة، الفكر العربي المعاصر، ص84
[39] الرواية، ص288

ببيت الطفولة والذكريات، وهنا أتاحَ المجالَ لتقنيةِ السردِ المباشر الاسترجاعي مع لغةٍ وصفية قادرة على إيصالِ المعنى بصورٍ مؤثرة ومعبرة صاغتها كلماتٍ شاعرية أحاطت بما يعتملها من مشاعر وأحاسيس ألمَّت بالبطل وهو يعرضها علينا بدفقٍ عاطفي ونفسي مؤثِّر وحزين، تقتضيه الحالةُ تلك، وبعدها انصرفَ خالد للحديثِ عن أخيهِ حَسَّان وعن ناصر وعن قسنطينة فيصفُ ذكرياتَهُ في شوارعها وسجنها (الكديا) ومقاهيها ومقبرتها وغير ذلك، فتحدَّثَ عمَّا أسماهُ يتمُ الأوطان وتداخلِ المعاناةِ الفردية مع معاناةِ المجتمع والشعب والدولة والوطن فكلُّهُ واحدٌ لا يتجزَّأ" وأجهشّ بالبكاء، ها هو الوطن الذي استبدلته بأمي يوماً. كنت أعتقد أنه وحده قادر على شفائي من عقدة الطفولة، من يتمي ومن ذلِّي. اليوم .. بعد كل هذا العمر، بعد أكثر من صدمة وأكثر من جرح، أدري.. أن هنالك يُتمُ الأوطان أيضاً. هنالكَ مذلَّةُ الأوطان، ظلمها وقسوتها، هنالك جبروتها وأنانيتها. هنالك أوطان لا أمومة لها.. أوطان شبيهة بالآباء." [40] وبعد استعراضِ تاريخِ مدينته قسنطينة وعرضهِ لتراثها ومبانيها ومعاركها ضد الغزاة والمحتلين، وطبيعةِ أهلها وطريقة عيشهم ومعتقداتهم، بأسلوبٍ وصفي رشيق يذكِّرُ بمقالاتِ أدبِ الرحلات، ها هي مدينة تتربّص بكلِّ فاتح.. تلفُّ نفسها بملاءتها السوداء وتخفي سرَّها عن كلِّ سائح. تحرسها الوهادُ العميقة من كلِّ جانب، تحرسها كهوفها السريَّة وأكثرُ من ولي صالح، تبعثرتْ أضرحتهم على المنعرجات الخضراء تحت الجسور. هنا القنطرة أقرب جسر لبيتي وذاكرتي". ويطولُ السردُ ويمتدُّ الوصفُ "هذه هي قسنطينة.. لا فرق بين لعنتها ورحمتها، لا حاجزَ بين حبها وكراهيتها، لا مقاييسَ معروفة لمنطقها. تمنحُ الخلودَ لمن تشاء، وتنزل العقاب بمن تشاء."[41] وصفٌ أطالَ فيهِ السارِدُ قليلاً حتى يخفِّفَ من ضغطِ الزمن وهو يسردُ أحداثهُ المتواترة سريعاً، إلى أن يستدركَ الحديثَ و يعودُ إلى (حياة) التي جاءَ ليحضرَ عرسها، فيبدأُ جولةً جديدةً من سردِ أحزانهِ وآلامهِ وهروبهِ منها إلى التشبُّهِ

[40] الرواية، ص289
[41] المرجع السابق ، ص297

بأمها (أمّا) . " لقد كان الأمر المدهشُ حقّاً في قصَّتي معكِ، أن تكونَ المبرِّرات التي جعلتني أحبُّكِ، هي التي كان يجبُ أن تجعلني أعدلُ عن حبكِ. "[42] ويستمرُّ في تداعي أفكارهِ حول حياة التي سيكونُ غداً حفلُ عرسها ،

" فليكن.. غداً تبدأُ طقوسُ أفراحكِ.. وينتهي ذلك الزمنُ الذي سرقناهُ من الزَّمن.

أجملُ الأحلام إذن سيِّدتي في انتظارِ غدكِ.

ولتصبح على خير.. أيُّها الحزن! "[43]

وعندما ينهي مراسمَ خروجِ (حياة) من حياتهِ يعودُ مرةً ثانية للحديثِ عن مدينتهِ وذكرياتهِ فيدورُ فيها ما يشاءُ وكما يشاءُ بذاكرةٍ اختزنت كلَّ شيْء " ها هي الذاكرة سياجٌ دائري يحيط بي من كل جانب.

تطوِّقني أوَّل ما أضعُ قدميَّ خارج البيت. وفي كلِّ اتجاهٍ أسلكهُ تمشي إلى جواري الذكرياتُ البعيدة.."[44]

وللوقوف على دراسةٍ شاملة للبنية الزمنية في رواية (ذاكرة الجسد) لابدَّ من الاطلاع على أنواع الزمن الذي تمَّ توظيفهُ في المبنى الروائي، حيثُ نجد من **أنواع الزمن:**

- **الزمن الطبيعي :**

هو الزمن الذي تدور فيه الأحداث، ويعبّر به الروائي عن اتّجاه سير الزمن إلى الأمام باستمرار ولا يعود إلى الوراء أبداً، إنه منسجم مع المسار الموضوعي في الطبيعة،"

[42] المرجع السابق ، ص308
[43] المرجع السابق، ص309
[44] المرجع السابق، ص311

حيث يتجلَّى في تعاقب الفصول، والليل والنهار وبدء الحياة من الميلاد إلى الموت، فهذه المظاهر كلها تبرز في وجود الأرض (المكان)،أي يتحرك الزمان و يتعاقب مجدَّداً"

" وجاءت تلك المعركة الضارية التي دارت على مشارف "باتنة" لتقلبَ يوماً كلَّ شيء.. فقد فقدنا فيها ستة مجاهدين، وكنتُ فيها أنا من عداد الجرحى بعدما اخترقت ذراعي اليسرى رصاصتان، وإذا بمجرى حياتي يتغيَّر فجأةً، وأنا أجدُ نفسي من ضمن الجرحى الذين يجب أن يُنقَلوا على وجهِ السرعة إلى الحدودِ التونسية للعلاج. ولم يكن العلاج بالنسبة لي.. سوى بتر ذراعي اليسرى،... وهأنذا أمام واقع آخر.."[45]

والزمن الطبيعي يسير بصورة متوازية بالنسبة لجميع الشخصيات ، ومعلوم أنّ الرواية تتكوّن من خطوط و شخصيات عدّةٍ ؛ فما يكون من الروائي إلّا أن يوقف الزمن الطبيعي بالنسبة لخط ما تشغله شخصية ما ، ليستكمل مسيرة هذا النوع من الزمن في خطّ تشغله شخصية أخرى، وهكذا ينتقل السارد من خطّ إلى آخر ، ومن شخصية إلى أخرى حتى يصل بالخطوط كلها إلى نقطة معينة من الزمن الطبيعي الذي يختاره الروائي نقطة النهاية للرواية . يقولُ خالد" مرَّ يوم السبت وسط مشاغل عودتي، وانشغال زياد بترتيب تفاصيلِ سفرهِ.

حاولتُ أن أتحاشى الجلوس إليه ذلك المساء. ولكن كان يوم الأحد يتربَّص بنا ويضعنا وجهاً لوجه نحن الثلاثة في ذلك الغداءِ الحاسم."[46] لأن زياد سيسافر يوم الأحد وبسفرهِ يعودُ خالد لترتيبِ العلاقة بينه وبين حياة من جديد، فسفر زياد يعني استعادة حياة من قبل خالد، وهي مسألةُ وقت طارئ تركَّزت فيه علاقة ما بين زياد وحياة وسط ابتعاد خالد

[45] الرواية، ص35.
[46] المرجع السابق: ص221.

فالزمن الطبيعي يمر بمواقيتهِ الصحيحة حيث يقتضي الزمن المحكي لكن يتغيَّرُ الزمنُ حينَ يتدخل الزمن المروي فيسردُ علينا ما أُضمِرَ في تضاعيفهِ وما يُستَرَدُّ لاحقاً.

" تحوَّل غداؤنا فجأةً إلى وجبةِ صمتٍ مربك تتخلَّلهُ أحياناً أحاديث مفتعلة، كنتِ تخترعينها أنتِ بفطرةٍ نسائية لترطيبِ الجو.. وربَّما للمراوغة. ولكن عبثاً.

كان هناك شيئ من البلّور قد انكسرَ بيننا. ولم يعد هناك من أمل لترميمه.

سألتكِ بعدها:

- هل ستأتين معي لنرافق زياد إلى المطار؟

أجبتِ:

- لا.. لا يمكنُ أن أذهب إلى المطار.. قد ألتقي بعمّي هناك،"

إنه وصفٌ نفسي لحالةِ القلق والتوتر التي سادت بين الثلاثة ، على وجبة غداء هي الأخيرة بينهم وبعدها سيسافرُ زياد، وإذا أردنا الحديثَ عنهُ الآن سنقولُ: (إنه سافرَ)، هذا الحدثُ الخاضعُ للّتعبيرِ في زمنين مختلفين يعودُ إلى اختلافِ الزمنِ الحكائي عن الزمنِ السردي في بنية الرواية، الذي له مدلوله في تعميقِ الشعورِ بالحدثِ والغوص في تفاصيلهِ وشموليتهِ النفسية في أزمنةٍ نفسية متعددة يؤكِّدها السرد الروائي في حبكةٍ متماسكة ومتقنة .

الزمن النفسي :

يختلف الإحساس بالزمن من شخص لآخر ، مع إنّ سرعة الزمن في جريانه ثابتة لا تتغير في الأوقات جميعها ، وتحت الظروف كلها، فلماذا يولد الإحساس المتباين بالزمن؟ الرواية غنية بهذا النوع من الأزمنة بسبب ضغط المواقف وتغيرها حسب

الحالات التي تعيشها الشخصيات " كنت أدري أن لا مقياس للوقتِ سوى قلبَينا، ولذا فالوقتُ لا يركضُ بنا إلاَّ عندما يركضُ بنا القلبُ لاهثاً، أيضاً من فرحةٍ إلى أخرى، ومن دهشةٍ إلى أخرى." [47] فنجدُ أنَّ الكاتبة نقلت إحساس الوقت من حيزه الطبيعي (الواقعي) إلى الحيز النفسي العاطفي وصار يجري مع الفرحة والحب للبطلين خالد وحياة، وحينَ يمرُّ البطل خالد في حالةِ الانتظار والقلقِ والخوفِ يشعرُ أنَّ الوقتَ يمرُّ بطيئاً جداً ، إذ يتغيَّر إحساسهُ بالزمن، يقولُ " أطولُ نهايةِ أسبوعٍ على الإطلاق كانت تلك التي قضيتُها في انتظار هاتفكِ صباحَ الأثنين" [48]

فالإنسان الحزين يشعر بأن الوقت يمرَ عليه ببطء ثقيل ، وكأن الدقائق قد استغرقت أكثر من وقتها بكثير ، وهذا ما يصطلح عليه " الزمن النفسي " أو " الزمن السيكولوجي " ."إن تجربة الزمن الطويل تنقلنا إلى ما وراء الواقع حيث تتضاعف العناصر الحسية فنتألم من امتلائنا بالذكريات القديمة والمرتبطة بالحركة الشمولية للعالم."[49]

البناء الزمني للأحداث في روايةِ ذاكرةِ الجسد:

يقوم الروائي ببناء العمل الروائي بكل أجزائه وتفاصيله، ومن أبرز هذه التفاصيل "الزمن" ، فكيف يبني الكاتب الزمن الروائي؟

(إنّ نسق الترتيب الزمني في الرواية التقليدية ينهض على نظام التعاقب الزمني، وهو نظام خطي متسلسل يحكمه المنطق ، ويتم فيه تحديد المكان والزمان على نحو دقيق،

[47] الرواية، ص96.
[48] الرواية، ص131.
[49]- ميا: فاخر ، مذكرات نقدية، ط 1 ، دار الينابيع للنشر و التوزيع، دمشق، 1997، ص115.

تمهيداً لسيلان الحكاية عبر خطية الزمان ، ولكن هذا النسق في الرواية الحديثة فقدَ خطِّيتهُ "[50]

وهنا كان الزمنُ مخلخلاً غيرَ منضبط وفق الترتيب العادي، إنَّما وفقَ ما تقتضيهِ حالةُ السردِ الروائي، فينطلقُ من النهايات ويعودُ إلى البدايات، ثم يتقدَّمُ نحو الأمام ويتراجعُ في مرَّاتٍ أخرى ويعودُ إلى التقدُّم مرة ثانية وهكذا حتى تصلَ الأمورُ إلى خواتيمِها، " أحسستُ لحظتها، أنَّ الوقت قد أصبح مناسباً، لأقصَّ عليكِ أخيراً قصَّة يومي الأخير في الجبهة، ذلك اليوم الذي لفظ فيه سي الطاهر اسمك أمامي لأوَّلِ مرَّة، وهو يودِّعني ويكلِّفني إذا ما وصلتُ إلى تونس على قيد الحياة أن أقوم بتسجيلك نيابةً عنهُ."[51]

فالزمن الروائي ليس زمنًا متواصلاً، هناك تقنيات استرجاعية، واستباقية، يخضعُ لها، فيبطئ من سرعة الأحداث أو يزيدها، وغيرها من التقنيات السردية ، وبذلك يختلف الزمن الروائي عن الزمن الكوني السرمدي المنصرف إلى تكوين عمر الإنسان ، وكل ماله عمر، ومن ثم انتهاء مساره الزمني حتماً إلى الفناء .

الماضي والحاضر، هما العنصران الأساسيان في الرواية ، يبدأ وقت السرد، حين فتح "خالد بن طوبال" باب الذاكرة لتعود الرواية إلى الوراء ربما لسنوات طويلة، لإعطاء القارئ الخلفية التي صنعتها والعالم الذي تدور فيهّ أحداث الرواية، في شيءٍ من تكثيف الزمن وضغطهِ ، " أجمع الأوراق المبعثرة امامي، لأترك مكاناً لفنجان القهوة وكأنني أفسح مكاناً لك.

بعضها مسودات قديمة، وأخرى أوراق بيضاء تنتظر منذ أيام بعض الكلمات فقط.. كي تدبَّ فيها الحياة، وتتحول من ورق إلى أيّام.

[50]- د. مرشد: أحمد، البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصرالله، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،2005م، ص237.
[51] الرواية، ص111.

كلمات فقط، أجتاز بها الصمت إلى الكلام، والذاكرة إلى النسيان، ولكن.." [52]

يتحضَّر البطل ليبدأ روايتهُ فيجمع الأوراق المبعثرة والتي تحوي الأفكار المهمّة التي ستكونُ لبَّ الرواية، ويستحضر فنجان القهوة على الطاولة إلى جانب الوراق لتهيئة الحالة الشعورية لطقس الكتابة ، هذا الفنجان يشكِّلُ رابطاً نفسياً وروحياً بينهما، مما يعني أنّه سيتوجه بالكتابة إليها ولها فهي المقصدُ وهي الغاية، وهذا ما سندركهُ لاحقاً، ويعقِّبُ بعدها أنَّ هناكَ مسودات قديمة أي هناك فعلٌ سابق لموضوع الكتابة ، يُضَافُ إليها بعضُ الكلمات الحديثة التي سيسطّرها على أوراقٍ بيضاء جديدة، ثمَّ تكونُ الرواية. يقول" تتزاحمُ الجمل في ذهني. كلّ تلك التي لم تتوقَّعيها. وتمطرُ الذاكرة فجأةً.. فأبتلعُ قهوتي على عجل. وأشرعُ نافذتي لأهرب منك إلى السماء الخريفية.. إلى الشجر والجسور والمارّة. إلى مدينة أصبحت مدينتي مرَّةً أخرى. بعدما أخذت لي موعداً معها لسبب آخر هذه المرّة. ها هي ذي قسنطينة.. وها هو كلُّ شيئ أنت."[53] إذاً المكان هو قسنطينة والزمان هو كلُّ الأزمنة المختزنة في الذهن وتجودُ به الذاكرة والخيال حيث يتداعى صوراً حزينةً أحياناً وقليلة الفرح أحياناً أخرى.

" ماكنتُ أنتهي من لوحة حتى تولد أخرى، وما أنتهي من حيّ حتَّى يستيقظَ آخر، وما أكاد أنتهي من قنطرة، حتى تصعد من داخلي أخرى.." [54] حيثُ يتسارعُ الإيقاع الزمني مع سرعة السرد وتلاحق الصور التي تعبِّرُ عن الحالة النفسية المتوترة للبطل، وهي تتفاعلُ مع الصور المختزنة في أعماق الذاكرة يقول خالد: " كيف حدث كل هذا؟ لم أعد أدري.

[52] الرواية، ص8.
[53] المرجع السابق، ص11.
[54] الرواية، ص190.

كان الزّمن يركض بنا من موعد إلى آخر، والحبّ ينقلنا من شهقةٍ إلى أخرى، وكنت أستسلم لحبِّكِ دون جدل.

كان حبّك قدري.. وربّما كان حتفي، فهل من قوّةٍ تقف في وجهِ القدر؟"[55]

فالزمن المنغمسُ بالحب والشوق يمرّ سريعاً لجماليته ، تفصحُ عنهُ الصّور الفنية المُصاغَة بلغةٍ شاعريّة تكسبهُ القوّة والجلال والشغف، يندمجُ مع سرديّاتِ الرواية كلها فيمنحُ صفاتهُ لها ويؤطِّرها بخواصه ويشملها خصائصه.

ولكن بعد ورود الخبرِ المؤلم باستشهادِ زياد، تتغيّرُ تقنية السرد عند الكاتبة فتميلُ سرعةُ السرد إلى الاعتدالِ و تتباطأ تاركةً المجالَ لها لتستعرضَ أفكارها بلسانِ البطل خالد حولَ الموت، فلسفتهُ وطبيعتهُ وعلاقتهُ بالشعراءِ وبالصَّيفِ والزمن.. إلى آخرِ ما هنالكَ من أفكار بثَّتها في سرديتها التخيلية وهي تُبطِّئُ من انحدارِ الزمن الروائي حتى تقيمَ التوازنَ المطلوبَ بينِ جميعِ مكوِّناتِ البناء الروائي، فتتحدَّثُ عنهُ صفحاتٍ طوال حتى تحيطَ بهِ وتدخلَ لُجَّةَ موتِ الشاعر زياد "مات زياد.. و ها هو خبر نعيه يقفز مصادفةً من مربَّعٍ صغير في جريدة إلى العين.. ثمَّ إلى القلب.. فيتوقَّفُ الزمن. يتكوَّرُ النبأُ غصَّةً في حلقي، فلا أصرخ.. ولا أبكي. أُصابُ بشللِ الذُّهولِ فقط، وصاعقةِ الفجيعة."[56] نلاحظُ الدقة في وصف خبر موت زياد والنقلاتِ النفسية والحركية والإدراكية المترافقة معها ، إذ تتلقَّفهُ العين أولاً وهي مركز البصر واستقطاب الأفكار عن طريق الصور ، ثم ينتقلُ إلى القلب وهو مركز الإدراك العاطفي ليستقرَّ بهِ وعندها يتوقف الزمن. الزمن الواقعي لم يتوقف إنَّما إحساسُ البطل بلحظتها أن الزمن توقف ولم يعد يتحرك بموت

[55] الرواية، ص100.
[56] الرواية، ص247.

زياد إنه أعمقُ تعبيرٍ وأعنفهُ وأسرعهُ عن الفجيعة.. وقد عبَّرَ عنها البطل قائلاً: (أُصابُ بصاعقة الفجيعة.) ومعروفٌ كم هي قوية ومؤلمة وسريعة التدمير هي الصاعقة.

وإذا عدنا إلى الرواية التقليدية نجد أنها تبدأ بترتيب ثابت ومحدَّد، فتنطلقُ من البداية وتستمر في توالي الأحداث بمنطقية حتى تصل إلى النهاية، والتمثيل الطبيعي لأي مسار زمني في أي عمل سردي هو أن يكون على هذا النحو من التصور في الشكل الوارد:

الماضي ← الحاضر ← المستقبل

لكن في مقتضيات السرد يجري تبادل بين هذه الأزمنة ، فيأتي المستقبل قبل الحاضر والماضي يحلُّ مكان الحاضر بسبب التضليل الحكائي الذي يمارسهُ الكاتب لسببٍ ما، وهذا نجدهُ في الرواية الحديثة التي لا تلتزمُ النسقَ التراتبي السابق ، والكتابة فيها لا تمشي على خطٍ مستقيمٍ، بل مجموعة من الخطوطِ المتشابكة تؤلِّفُ فضاءَ الرواية بمجمل أحداثِها. " هل توقَّعتُ يومَ كنتُ شاباً بحماسهِ وعنفوانهِ وتطرُّفِ أحلامهِ أنهُ سيأتي بعد ربعِ قرن، يوم عجيب كهذا، يجرِّدني فيهِ جزائري مثلي من ثيابي.. وحتَّى من ساعتي وأشيائي ، ليزجَّ بي في زنزانة (فردية هذه المرة) زنزانة أدخلها باسم الثورة هذه المرة.. الثورة التي سبق أن جرَّدتني من ذراعي!" [57]

نلاحظُ الرؤية التنبؤية، رؤية الاستشراف المستقبلي، التي عصفت بالبطل بعد ربع قرن من سني شبابه وعنفوانه وجمال أحلامه وكأنه تنبَّأ ما ستؤول إليه الأوضاع في الجزائر فطرح فكرته بحسرةٍ وأسى.. وهو يتذكرُ أيامَ مضت من عمره، ليحدِّد أين وصلَ وما تحقَّقَ من مشاريعه وطموحاته.

وعلى ضوء دراستنا حول أقسام الزّمن في العمل الروائي فإننا نجدُ عدة أنساقٍ له :

[57] الرواية، ص243.

أولاً : نسق زمني متقدّم :

يعتمد هذا النوع من الزمن الروائي على توالي الأحداث وتعاقبها ، وعلى تفكير منظّم ومرتّب ، ويُعَدُّ هذا النسق من الأنساق التقليدية التي ترمي إلى تسليط الضوء على أيديولوجيات الكاتب ، وإيصال أفكاره سواء أكانت هذه الأفكار سياسيّة أم اجتماعيّة أم عقدية ، مع مراعاة المستوى الفني في تصاعد الأحداث وإضفاء الإثارة المناسبة عليها، " لقد بدأ كل الثورات الصناعية في العالم من الإنسان نفسه، ولذا أصبح اليابان (ياباناً) وأصبحت أوروبا ماهي عليه اليوم. وحدهم العرب راحوا يبنون المباني ويسمُّون الجدران ثورة. ويأخذون الأرض من هذا ويعطونها لذاك، ويسمّون هذا ثورة."[58] وقد هيمن هذا النَّوع من الأنساق مدة طويلة على فنّ القص بكل أشكاله، حيث كانت الأحداث تُسرَد للقارئ في نفس ترتيب حدوثها الزمني، بحيث تعطيه الفكرة اللازمة لاستشراف الأحداث وربطها ببعضها إلى أن يصل إلى الهدف النهائي في الرواية، " حيث إنَّ دراسة النظام الزمني لقصة ما، هو مقارنة ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنية في الخطاب السردي بنظام ترتيب هذه الحداث في الحكاية (كما جرت) وتستدعي هذه المقارنة وجود نقطة تكون نقطة الصفر التي يتَّفق فيها الزمنان، وغالباً ما تكون هذه النقطة هي نقطة انطلاق رواية الأحداث" [59]

" دعيني أتزوَّدُ منكِ لسنواتِ الصَّقيع. دعيني أخبِّئُ رأسي في عنقكِ. أختبئُ طفلاً حزيناً في حضنكِ. دعيني أسرقُ من العمرِ الهاربِ لحظةً واحدةً، وأحلمُ أنَّ كلَّ هذهِ المساحاتِ المحرقة.. لي. فاحرقيني عشقاً ، قسنطينة!"[60]

ثانياً: نسق زمني متراجع(متأخّر):

[58] المرجع السابق، ص 148.
[59] أ. بكوش: يوسف، جامعة سيدي بلعباس، بلاغة البناء الزمني في الخطاب الروائي العربي، مجلة تاريخ العلوم، العدد الرابع، ص141.
[60] الرواية ، ص173.

وفيها يقع اختيار الروائي على حدث متقدِّم في الرواية أو نهائي، ثم العودة بالأحداث إلى الوراء .(إنّ مكوّنات المتن الروائي في هذا النمط من البناء تتناثر و تتشظّى، ولا تتّضح مكوّناتها إلا بعد إخضاعها لعملية ترتيب في ذهن المتلقي)[61]

يستحضرُ البطل "خالد" في حديثهِ إلى " حياة " أهميةَ أن يخبرها بحدثٍ أساسيٍ مضى في حياتهِ ، وهذا الحدثُ يخصُّها، وهي لا تعرفُ عنهُ شيئاً، فقال:

" أحسستُ لحظتها، أنَّ الوقتَ قد أصبحَ مناسباً ، لأقصَّ عليكِ أخيراً قصَّةَ يومي الأخيرِ في الجبهة، ذلك اليومُ الَّذي لفظَ فيهِ سي الطاهر اسمكِ أمامي لأوَّلِ مرَّة، وهو يودِّعني ويكلِّفني إذا ما وصلتُ إلى تونس على قيدِ الحياة أن أقومَ بتسجيلكِ نيابةً عنهُ " [62]

المفارقات الزمنية:

تواجه الرواية إشكالية توظيف الزّمن السردي على مستوى تتابع الأحداث ، وهي لا تقنع بالتتابع المتسلسل ؛ لذلك تلجأُ الكاتبة إلى عرض الأحداث الروائية بطريقة تلغي فيها التسلسل والترتيب . من خلال التقنيات الزمنية السردية، مما يسبب تقديماً وتأخيراً أو تكثيفاً في عرض الأحداث؛ وبالتالي ينتج من ذلك ما يسمى "بالمفارقات السردية". فـ "عندما لا يتطابق نظام السرد مع نظام القصة، فإننا نقول إن الراوي يولِّد مفارقات سردية" [63]

تميزت المفارقات الزمنية في هذه الرواية ببلاغة سردية عالية، إذ شكلت انكسارات الزمن فيها انزياحاً عن الزمن الحاضر في الخط السردي، وخلخلة فيه، فأسهمت بذلك في تفكيك العالَم المَحكي وتشظية أنظمته الدلالية بغية كسر رتابة التسلسل المنطقي للمَروي،

[61]- د. جنداري: ابراهيم ، الفضاء الروائي في أدب جبرا ابراهيم جبرا ، ط1، 2013م، دمشق، مطبعة تموز، ص88.
[62] الرواية، ص111.
[63] لحمداني: حميد، 1991م، ص.74.

وأقنعت القارئ بأهمية الموضوعات التي طُرِحَت فيها، بأسلوبٍ ممتعٍ ومشوِّقٍ وهنا كمنت بلاغة المفارقات الزمنية فيها. يقول خالد عن موتِ زياد" ها أنا أملك حجَّة حضوره، وحجَّة غيابه. حجَّةَ موتهِ.. وحجَّةَ حياتهِ. وها هي رائحةُ الحياة والموت تتبعثانِ معاً وبالقوة نفسها من ثنايا تلك الحقيبة. ها أنا معه ودونه.. أمام بقاياه."[64] وتوردُ الكاتبة مستغانمي خلال سرديتها الروائية كثيراً من التقابلاتِ المتضادة لتخلقَ أثراً أعمق وإحساساً أدقّ وأجمل بما تريد التعبير عنه عملاً بالمثل القائل: والضّدُّ يبرزُ حسنَهُ الضّدُّ. " كنتِ تبكينَ أمامي لأوّل مرّة، أنت التي ضحكتِ معي في ذلك المكانِ نفسهِ كثيراً. " [65]هذه المتناقضات الثنائية المتضادة تولِّدُ في نفسِ قائلها وقارئها أحاسيسَ جميلة يزيدُ إدراكها أكثر فيما لو وردت بمفردها وهي بذلك تؤلِّفُ بين وحداتٍ زمنيةٍ مختلفة لتطرحَ الأفكار المتعلقة بالحدثِ الرئيسي ألا وهو موت زياد. فزيادٌ ماتَ وهذا فعلٌ ماضٍ يتلوهُ فعلان مضارعان (تتبعثان، أملكُ) يحاكيانِ لحظةَ الزمن السردي وهو يتأمَّلُ حقيبته التي تركها أمانةً عندهُ فحوَّل إليها ذاكرته لينبشَ منها ما يريدُ أن يقولهُ حول أحداثٍ مضت وأفكارٍ غابت يستحضرها ويمنحنا فرصة الاطلاع عليها ومعرفتها.

فالكاتبة لا تكتب عن الزمن الآني " الحاضر" وتنطلق منه إلى الأمام فقط ، وإنّما تحاول أن تنتقل بالأحداث إلى أزمنة مختلفة ، فنجدها في بعض الأحيان تتقهقر بالأحداث وتوغل في التأمل بالماضي ، أو قد يمرّ الماضي على خاطرها مروراً سريعاً كومضة البرق ، وفي أحيان أخرى تنقل الحدث إلى المستقبل وتتفاعل مع تفاصيله ، "كنتُ أشهدُ تحوُّلكِ التدريجي إلى مدينة تسكنني منذ الأزل.. كنت أشهد تغيُّركِ المفاجئ، وأنت تأخذين يوماً بعد يوم ملامح قسنطينة، تلبسين تضاريسها، تسكنين كهوفها وذاكرتها ومغاراتها السريَّة، تزورين أولياءها، تتعطرين ببخُّورها، ترتدين قندورة عنَّابي من القطيفة،

[64] الرواية، ص255.
[65] الرواية، ص116.

.... فأكادُ أسمعُ وقعَ خلخالك الذهبي يرنُّ في كهوفِ الذَّاكرة."[66] وكأن الروائي يمتلك " آلة الزمن " التي نقرأ عنها في كتب الخيال تمكِّنه من السفر والانتقال عبر الأزمنة المختلفة. "فالزَّمن مظهر نفسي لامادي، ومجرَّد لا محسوس، ويتجسَّد الوعي به من خلال ما يتسلَّط عليه بتأثيرهِ الخفي غير الظاهر، لا من خلال مظهرهِ في حدِّ ذاته، فهو وعي خفي، لكنَّهُ متسلِّط، ومجرَّد، لكنَّهُ يتمظهر في الأشياء المجسَّدة."[67]

" أذكرُ ذلك اليوم الذي وقفتُ فيهِ لأوَّلِ مرَّةٍ أدقُّ بابَ بيتكم في شارعِ التوفيق بتونس. أذكرُ تلك الزيارة بكلِّ تفاصيلها وكأنَّ ذاكرتي كانت تقرأُ مسبقاً ما سيُكتَبُ لي معك، فأفرغتُ مساحةً كافيةً لها." [68]

إنَّ دراسة حركة السرد الروائي تقودُ إلى اكتشاف " التلاعب الزمني " الذي أصبح من التقنيات الضرورية في الرواية المعاصرة، ويتم هذا على ثلاثة أنماطٍ هما:

الاسترجاع :

"الاسترجاع مخالفة لسير السرد تقوم على عودة الراوي إلى حدث سابق، وهو عكس الاستباق، وهذه المخالفة لخط الزمن تولِّد نوعاً من الحكاية الثانوية. ولا شيء يمنع أن تتضمَّن الحكاية الثانوية بدورها استرجاعاً، أي حكاية فرعية داخل الحكاية الثانوية."[69] وقد يكون الاسترجاع حديثاً مع النفس أو مونولوجاً داخلياً أو بوحاً لشخص آخر فهو شديد الارتباط بشخوص الرواية ، عن طريق السرد الاستذكاري لتقديم معلومات مخفية وطرح أفكار ومواقف لا يعرفها القارئ وخلق حالة من التشويق والإثارة لديه، إنَّ "ارتباطُ

[66] المرجع السابق، ص141.
[67]- د. مرتاض: عبد الملك ، في نظرية الرواية،" بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، العدد 240 سنة 1998 ، ص173.
[68] الرواية، ص111.
[69] د. زيتوني: لطيف ، معجم مصطلحات نقد الرواية ، الطبعة الأولى ، بيروت، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، 2002 ، ص18

الاسترجاع يكون في معظمه بالشخصية، سواء بالرواية، أم إحدى الشخصيات الأخرى المشاركة في السرد، إذ أن خلخلة ترتيب الزمن، كثيراً ما يأخذ شكل العودة إلى الوراء، ليذكر الأحداث التي تركت أثراً في نفس الشخصية"[70]

" سألتكِ من أين تعرفين كل هذه القصص؟

قلتِ:

منها هي.. ومن أمي أيضاً. تصوَّر أنَّها يوم كانت حبلى بأبي لم تفارق مزار (سيدي محمد الغراب) بقسنطينة، حتَّى إنَّها كادت تلده هناك.. ولذا سمَّتهُ (محمد الطاهر) تباركاً به .. ثمَّ سمَّت عمّي (محمد الشريف) تباركاً به ايضاً. بعدها عرفتُ أنَّ نصف رجال تلك المدينة أسماؤهم هكذا.. وأنَّ أهل تلك المدينة يولون اهتماماً كبيراً للأسماء "[71]

والاسترجاع " هي تقنية زمنية تعني: أن يتوقف الراوي عن متابعة الأحداث الواقعة في حاضر السرد، ليعود إلى الوراء، مسترجعاً ذكريات الأحداث والشخصيات الواقعة قبل ، أو بعد بداية الرواية." [72] وقد استدعت فكرة توثيق تاريخ الجزائر والأحداث الهامة إلى الاسترجاع الخارجي ، من قبل الكاتبة فتحدثت عن الأمير عبد القادر الجزائري والفدائية جميلة بو حيرد وغيرهما .. وقد عمدت الكاتبة أحلام مستغانمي إلى كسر زمن القص الحاضر وفتحته على ماضٍ متعلِّق به بغيةَ خلقِ فضاءاتٍ فنيَّة لروايتها منها التشويق والتماسك والتنبيه ، باستخدام أسلوب التَّذكُّرِ والتداعي، أو إدخال قصةٍ بقصَّةٍ أخرى غيرها،" سنة 1969، وفي عزِّ الفراغ والبؤس الثقافي الذي كان يعيشه الوطن، اخترع أحدهم في بضعةِ أيَّام، أكبر مهرجان عرفته الجزائر وإفريقيا، كان اسمه" المهرجان

[70] - د. زيد: فضل يحي، العماري: أنيسة محمد محسن أحمد، بلاغة المفارقات الزمنية في رواية (عقيلات). مجلة الآداب للدراسات الفنية والأدبية، العدد 12، ديسمبر 2021.
[71] الرواية، ص109.
[72] - د. يوسف: آمنة ، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، ص104.

الإفريقي الأوَّل"، دُ عيَت إليهِ قارَّة وقبائل إفريقية بأكملها لتغنِّي وترقص –عارية أحياناً– في شوارعِ الجزائر لمدَّة أسبوع كامل على شرفِ الثورة!"[73]

تستدركُ " حياة " ما نسيتهُ، فتسألُ " خالد" عن سببِ مجيئهِ إلى فرنسا، فيقرأُ لنا ما سجَّلهُ من قبلُ عن هذا الحوار بينهما ليفصحَ ما خبَّأهُ ولم يبُحْ بهِ لأحد، حتى جاء سؤال حياة فاستخرجَ الأسبابَ من أماكنها بقولهِ: "قلتِ وأنتِ تقاطعينني:

- صحيح.. نسيتُ أن أسألكَ لماذا جِئتَ إلى فرنسا؟
- أجبْتكِ و تنهيدة تسبقني، وكأنَّها تفتح أبواب صدرٍ أوصدتْهُ الخيبات:
- قد لا تقنعكِ أسبابي.. ولكنَّني مثل ذلك الصديق، أكرهُ الجلوسَ على القممِ التي يسهلُ السقوطُ منها...لقد كنتُ بعد الاستقلال أهربُ من المناصبِ السياسية التي عُرِضَت عليَّ، والتي كانَ الجميعُ يلهثونَ للوصولِ إليها."[74]
- –يحاول السرد خلق انسجام بين مجموعة أحداث دفعة واحدة وهذا يُسمَّى: مجاورة الماضي للحاضر وقد ذكرتهُ الكاتبة مستغانمي في الرواية حين كتبت: " فما أوجعَ هذه الصدفة التي تعودُ بي، بعد كل هذه السنوات إلى هنا، للمكانِ نفسهِ، لأجدّ جثَّةَ مَن أحبُّهُم في انتظاري، بتوقيتِ الذاكرةِ الأولى"[75]

وتتداخلُ الأزمنة تنافراً وانسجاماً مع تداخلِ الأحداثِ وزيادةِ حِدَّةِ الصراعِ في الجزائر، ولكنها تبقى مرتبطةً مع بعضها بخيطٍ روائي أبدعت الكاتبة نسجهُ بدقةٍ وفنيَّةٍ عالية، استخدمت فيها صيغة الاسترجاعِ الزمني، يقولُ خالد:" غداً ستكونُ قد مرَّت 34 سنة على انطلاقِ الرَّصاصةِ الأولى لحربِ التحريرِ، ويكون قد مرَّ على وجودي هنا ثلاثةُ

[73] الرواية ، ص180.
[74] الرواية، ص147.
[75] - المرجع السابق، ص24.

أسابيع، ومثل ذلك من الزمن على سقوطِ آخرِ دفعةٍ من الشهداء.." [76] مما سبق نخلص إلى أن الكاتبة اعتمدت الاسترجاع الخارجي أداةً للتوثيق التاريخي من خلال النص الأدبي لتاريخ وأحداث الجزائر.

الاستباق :

هو" مخالفة لسير زمن السرد، تقوم على تجاوز حاضر الحكاية، وذكر حدث لم يحن وقته بعد"[77]

وهو أحد أشكال المفارقات الزمنية ، الذي ينطلق من الحاضر إلى المستقبل ، بغية استدعاء حدث أو أكثر سوف يقع بعد لحظة الحاضر، ومثل هذا نقرأُ في رواية ذاكرة الجسد حيثُ يستعيدُ البطل خالد ذكرى إقامةِ مهرجانٍ كبير في الجزائر عام 1969 ، وذلكَ ليفسِّرُ سبب إقامةِ هذا المهرجان ، ويصفُ أحوالَ الجزائر بعد الاستقلال، فيستكملُ ما وصفهُ سابقاً عنهُ ويقول:" كم من ملايين أُنفِقَت وقتها، على مهرجانٍ للفرح ظلَّ الأوَّل والأخير. وكانت أهمُّ إنجازاتهِ التعتيمُ على محاكمةِ قائدٍ تاريخي كان أثناءَ ذلك، يستجوبُ ويُعذِّبُ رجالهُ في الجلساتِ المغلقة.. باسمِ الثَّورة نفسها."[78]

إنّه حالة من حالات التنبؤ بالأحداث يقوم بها الراوي ، أو تتقدح في ذهن الشخصية على شكل حوار مع النفس " مونولوج " ، أو في أثناء الحوار مع شخصية أخرى . فالبناء العام للخطاب الروائي في رواية ذاكرة الجسد يقوم على فعل العودة إلى الأحداث الماضية من خلال الذاكرة التي تختزن كل شيء فتنهلُ منها ما تريدُ وتعودُ بهِ إلى النص الحالي.

[76] الرواية، ص24.
[77] د. زيتوني: لطيف ، معجم مصطلحات نقد الرواية ، ص15.
[78] الرواية ، ص181

الحذف و الإضمار:

وهي "تقنية من تقنيات السّرد تتيح للروائي اختزال مدد زمنية طويلة أو قصيرة من زمن السرد ، وعدم التطرق لما جرى فيها من وقائع وأحداث"[79]. يستخدمها الكاتب حين يريد تسريع السرد بتكثيف الزمن غير المفيد واختزاله والقفز فوقه ، وهنا قد يدل الروائي بإشارة معينة على ذلك أو لا يحتاج إليها.

يقول خالد" لا أصعب من أن تبدأ الكتابة، في العمر الذي يكون فيه الآخرون قد انتهوا من قول كلِّ شيئ. الكتابة ما بعد الخمسين لأول مرة.. شيئٌ شهواني وجنوني شبيه بعودة المراهقة." [80] يردُ الحذفُ في رواية ذاكرة الجسد باستخدام النقاط لإكمالِ حديثٍ ما ، حيثُ تشيرُ النقاطُ الوردة بعد حديثٍ ما إلى أن يستعيدَ القارئُ المعنى الذي تمَّ حذفهُ من قبلِ الكاتبة على لسانِ أبطالِ الرواية وشخوصها،" قلت له وأنا أنتقلُ من دهشةٍ إلى أخرى:

- علاش.. هل تنوي الحج؟
- قال:
- طبعاً.. ولمَ لا.. ألستُ مسلماً؟"[81]

هناكَ كلامٌ بدلَ النقاط يجبُ وضعهُ لتفسيرِ الكلامِ أكثر، فبعدَ: طبعاً يجب القولُ: طبعاً أنوي الحج، وبعد: ولمَ لا.. نقولُ: ولمَ لا أحج؟ وهكذا ..

وفي حديثهِ عن مدينتهِ يحذفُ اسمها في البداية، ويستحضرُ صفاتِ مدنٍ تشابهُ صفاتها دون أن يذكرها إنَّهُ حذفٌ مضمَر ، غيرُ معلَن: " هنالك مدنٌ منافقة.. وأخرى أقلُّ نفاقاً فقط .."

[79]- بحراوي: حسن، بنية الشكل الروائي، ط1 ،المركز الثقافي العربي، ، م1990، ص156
[80] الرواية، ص23
[81] الرواية، ص306

وليسَ هناك من مدنٍ بوجهٍ واحد.. وحرفةٍ واحدة. وقسنطينة أكثرُ المدنِ وجوهاً.. وتناقضاً."[82]

إلاَّ أنَّهُ عادَ وأعلنَ عن اسم مدينتهِ بعد إضمارهِ في البداية ممَّا جعلَ الحديثَ أكثرَ تأثيراً وشموليةً والمعنى أكثر اتساعاً، ولا تُخفى دلالةُ الحذفُ المضمر الذي جاءَ التعبيرُ عنهُ بالنقاطِ الواردةِ بعد مسمياتها في النص السابق. وفي مكانٍ آخر يختصرُ البطل خالد سنواتٍ طويلة من غربتهِ في باريس ويسرِّعَ الزمن بنقلةٍ واحدة، ليعلنَ فجأةً " ها هي قسنطينة إذن.. وها أنذا أحملُ بيدي الوحيدة حقيبة يد، ولوحة تسافرُ معي سفرها الأخير، بعد خمس وعشرينَ سنة من الحياةِ المشتركة." [83] فقد حذفَ فترةً زمنيةً طويلة كان يستطيعُ أن يسردها بتفاصيلِها ولكن الحالة الزمنية هنا تتطلَّبُ الحذفِ للوصولِ فوراً إلى الحالةِ الراهنة. ويختصرُ البطل الحديثَ عن بدءِ حرب التحرير الجزائرية وما رافقها من أحداث وتضحيات بعبارة صغيرة يحدّد فيها الزمن السردي الذي يتقدَّمُ 34 سنة على الزمن الواقعي لحدث بدء الحرب ، وقد حذف الفترة الزمنية السابقة كلِّها واستعاضَ عنها بجملةٍ واحدة، " غداً ستكون قد مرَّت 34 سنة على انطلاق الرصاصة الأولى لحرب التحرير، ويكون قد مرَّ على وجودي هنا ثلاثة اسابيع، ومثل ذلك من الزمن على سقوط آخر دفعةٍ من الشهداء.."[84] كما أوردَ زمن وجوده الذي يحدّدُ من خلالهِ تاريخ استشهاد آخر دفعة من الثوار بأسلوبِ المقارنة والتوافق بين الحدثين.

إنّ أحداث رواية (ذاكرة الجسد) وليدة الذاكرة المرتبطة بالجسد، وهي حافظة لأسراره وأحداثه الماضية ، هذا الجسد صار ذاكرة لما يختزنه من معاناة

[82] المرجع السابق، ص315
[83] الرواية، ص284
[84] المرجع السابق، ص24

وانكسارات وخفايا متعلقة بماضي الجزائر وهي تنتفض ضد الاستعمار ، فاتكأت ثورتها على معمودية الجسد الذي تحول إلى ذاكرة تحمل أسراره ومضامينه المخفية خاصة تلك اليد المبتورة لخالد بطل الرواية، والتي حمَّلها كثيراً من المعاني النضالية على الصعيد الفردي والاجتماعي والسياسي فنراهُ يشهرها في كلِّ موقف يريدُ أن يثبتَ فيهِ حضورهُ سواءَ بالتأييدِ لموقفٍ ما أو بالاستنكارِ والشجبِ لمواقفَ يرفضُها أساساً، وقد اعتمدت الرواية على ذاكرة جسد الرَّاوي وهو الشاهد على أسرار البيئات المتنوعة (الجزائر.. باريس.. الجزائر مرةً ثانية – قسنطينة) التي عاشَ فيها ، في أزمنةٍ مختلفة، وإذ تنطلق الرواية من الحاضر بالرجوع إلى الماضي عن طريق الذاكرة لاستحضار جوانب من هذا الماضي معتمدةً على التداعي في عملية استرجاع هذا الماضي، "وهي تقنية اعتمدتها كثيراً الكاتبة "أحلام مستغانمي" في روايتها هذه، مما أضفى عليها تشكيلاً جديداً وممازجةً بين الماضي والحاضر " [85]

نتائج البحث:

توصَّلت الباحثة في موضوع دراسة البنية الزمنية في رواية(ذاكرة الجسد) إلى النتائج التالية:

أولاً: تبادل التأثير بين البنية الزمنية والبنى الدلالية في الرواية :

ساهمت المحكيات الاسترجاعية على مستوى البناء السردي في تحديد الاشتغال الدلالي ، فشاركت في تشكيل دلالات النص الروائي، حيث تمددت على مساحة الحكي في النص الروائي، الذي ارتبط بمحتوى سياقه الحكائي المرتبط أساساً بنشاط الذاكرة في استعادة

[85]- د. زعموش: عمار، الخطاب الروائي في رواية(ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي، من نقد الواقع إلى البحث عن الذات، مجلة الثقافة،1997،ص11

الماضي، إذ أنَّ حركة الحكي كانت تدورُ بين زمنين محكيين أحدهما زمن الحكي المستَرجَع والآخر زمن السرد الحاضر المبني على الحدث الراهن متَّجهاً نحو المستقبل.

استخدمت الكاتبة الزمن النفسي إلى جانبِ الزمن الواقعي، فلحظت التغيرات المختلفة للشخصيات الروائية حسب البيئات التي استقرَّت فيها وتفاعلت معها، فعمَّقت الإحساس النفسي بالزمن لهذه الشخصيات حسب حالتها الشعورية التي تتراوح بين الحزن والفرح والقلق والاستقرار وشعور الهزيمة والخيبة والانكسار. بينما كان التعبير عن الإحساس بالزمن الواقعي تعبيراً انفعالياً متطابقاً مع بنية الحدث الفعلية.

ثانياً: لعبت المفارقات الزمنية دوراً كبيراً في تشكيل البنية الزمنية داخل النص الروائي، على مستوى الحكاية والسرد، فعملت على إضاءة بعض الشخصيات الروائية وذكر أحداثٍ مضت، وأسهمت في سد الفجوات الحكائية، لتبدو المشاهد الحكائية أقرب إلى التماسك والترابط المنطقي ، وكان لمفارقة الاسترجاع حضوراً كبيراً، وتأثيراً مديداً على طول الخط السردي للرواية لارتباطهِ بتداعي الخيال واستحضار الصور والأحداثِ من الماضي الذي اعتمدت عليه بشكلٍ أساسي، وقد استخدمت الكاتبة الذاكرة التخيلية التي لعبت دوراً مهماً في عملية الإبانة والكشف عمَّا يعتمل في ذوات الشخصيات الروائية، فرسمتْ صوراً لغويةً أساسها الخيال الذي احتفظَ ببقايا من الواقع المبتعد شيئاً فشيئاً إلى الوراء، وبنت هيكلَ السرد على ما يُسمَّى: الزمن الدائري التوليفي الذي يتوالد منبثقاً دوائر صغيرة من دوائر أكبر، عبرَ تقنيةِ السردِ المباشَر المتَّكئة على ما يمتحهُ فكرُ البطلِ ممَّا نقشَ في دفاترِ مذكِّراتهِ، وليسَ ممَّ يشاهدهُ على أرضِ الواقعِ من أحداثٍ وأفعالٍ وتجاربَ حقيقية، لترصدَ حركةَ النفسِ البشرية في صراعاتها الداخلية وفي مواجهتها لأقدارها القاسية، فاستطاعت الكاتبة أن تطرح قضاياها الخاصة والعامة ، تلك القضايا المشحونة بالحزن والألم والاستلاب نتيجة معاناتها في مجتمعها،

ثالثاً: قدَّمت الكاتبة نسيجاً روائياً متماسكاً بين الوحدات الزمنية الأساسية(الماضي والحاضر والمستقبل)، وعملتْ توليفة منسجمة بين هذه العناصر الزمنية لتتكامل وتتقدم وهي ترسم لوحاتٍ متنوعة لأحداثِ الشخصيات التي تنمو وتتضج وتتطور في سياقِ كلاسيكي متراتب للزمن: ماضٍ.. حاضر.. مستقبل.

رابعاً: رافقت اللغة السردية التخيلية حركة السرد الروائي فكانت منسجمة ومتناسقة مع البنى الزمنية المختلفة، فعند الحديث عن الزمن الماضي كانت تكثرُ من الأفعالِ الماضية، خصوصاً الفعل الماضي ناقص الدلالة(كان وكانت)، وقد أوردته في صفحةٍ واحدة /7/ مرات ص140 وحين أرادت الحديث عن الزمن الحالي الواقعي أكثرت من إيراد الفعل المضارع، ففي سطرين ص338 استخدمت خمسة أفعالٍ مضارعة، وحينَ أرادت الحديثَ عن المستقبل، لجأت إلى أحرف التسويف الدالة على المستقبل (س وسوف)ص331 وهذا يعطي الدلالة على ارتباط البنى اللفظية مع البنى اللغوية وتأطير البنى الحكائية في الرواية .

مراجع البحث:

- الشكلانيون الروس، نظرية المنهج الشكلي، ترجمة: إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين، مؤسسة الأبحاث العربية، 1982.

- بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، ط1،المركز الثقافي العربي، 1990 م.

- بوتور، ميشال ، بحوث في الرواية الجديدة، سلسلة زدني علماً، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت.

- بكوش، أ.يوسف، بلاغة البناء الزمني في الخطاب الروائي، جامعة سيدي بلعباس، مجلة تاريخ العلوم عند العرب، العدد الرابع.

- جنداري، د.ابراهيم ، الفضاء الروائي في أدب جبرا ابراهيم جبرا. ط1، 2013م، دمشق، مطبعة تموز.

- زعموش، د. عمار، الخطاب الروائي في رواية(ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي، من نقد الواقع إلى البحث عن الذات، مجلة الثقافة ،1997.

- زيتوني، د. لطيف ، معجم مصطلحات نقد الرواية ، بيروت، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، الطبعة الأولى 2002.

- مبروك ، د مراد عبد الرحمن، (بناء الزَّمن في الرواية المعاصرة) تيار الوعي نموذجاً، صادر عن الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، ضمن سلسلة دراسات أدبية، عام 1998.

- لحمداني: حميد، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، 1991م.

- مستغانمي، أحلام، رواية ذاكرة الجسد، ط16، دار الآداب، 2001 .

– ملك: عزة آغا، القراءة والكتابة في الرواية الحديثة، الفكر العربي المعاصر .

– ميا: فاخر، مجلة المعرفة السورية، دمشق، العدد 431، آب، 1999.

-- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، 1997م